١١

اليتيم

قضى أهل مكة أيامهم فرحين مبتهجين، يلمؤهم الفخر، ويزدهيهم النصر، ويتحدثون بحديث الفيل إذا أضحوا، ويّتذاكرون انهزام الحبشة إذا أمسوا، حتى كاد يشغلهم ذلك عن تجارتهم ويصرفهم عن مرافقهم. وتسامعت الرعب بهذه الآية الكبرى التى أظهر الله بها كرامة هذا البيت، ورفع الله بها مكانة الذين يقومون حوله من قريش! فأزداد العرب لقريش حبًا وإكرامًا، وأخذت تستوثق الأمور لأهل مكة على من دنا منهم أو نأى عنهم فى تهامة ونجد والحجاز. ولكن شيخًا من قريش لم يشغله فخر، ولم يزدهر نصر،ولم تصرفه أحاديث الناس من حوله عن حديث نفسه المتصل وحزمها المقيم! وهو عبد المطلب بن هاشم.

ولكن امرأة من قريش لم يأخذها عجب ولم يملكها تيه، ولم تشارك نساء قريش فيما كن يتخذون من زينة، وينصرفن إليه من لذات الحياة، إنما كانت تؤثر العزلة وترغب فى الخلوة إلى نفسها، تتحدث إليها وتسمع منها، لا تجد فى هذا الحديث حزنًا صريحًا ولا سرورًا صريحًا، وإنما هو شىء بين بين: فيه راحة من لذع اليأس، وفيه صارف عن نشوة الأملّ وهى آمنة بنت وهب.

كان الشيخ يذكر ابنه فيشغله الحزن المُمِضُّ العميق عما كانت فيه قريش من بهجة وسرور، ومن غبطة وحبور. وكان الشيخ فى قصة الفيل وانصراف المغيرين عن مكة، ثم يرى فخرَ قريش ومدُّحَها واستعلاءها على العرب، فيبتسم فى نفسه ساخرًا منها عاطفًا عليها. فلم تصنع قريش شيئًا إلا أنها لاذت بشغاف الجبال، وفرّت إلى حيث كانت تهيم الوحوش، وخَلت بين طاغية الحبشة وبين البيت. فلم تَرْدُدْه إذًا، ولكن الله ردّه، ولم تَحطِمه إذًا ولكن الله حَطَمه. وهى على ذلك تفاخر وتكاثر، وهى على ذلك تستكبر وتستعلى. وكذلك الإنسان يَغره بنفسه الغرور، فيضيف إليها ما لم تفعل. ويحمل عليها ما لم تأت من الأمر.

كان الشيخ يسخر فى نفسه من قريش، ويعطف فى نفسه على قريش، يلتمس لها المعاذير فى هذا الضعف الذى يصيب الناس فيخدعهم عن أنفسهم ويكبرهم فى أعينهم، ويخيل إليهم أنهم شىء، وما هم بشىء أمام هذه القوة القاهرة التى تَغلب ولا تُغلب، والتى تَقهر ولا تُقهر، والتى لا تريد إلا بلغت ما تريد. هذه القوة التى أخرجت من البحر طيرًا لم يرها الناسُ من قبل، فسلَّطها على جيش لم يرَ الناس مُثله من قبل، فما هى إلا أن حلقت فوقه ساعةٌ من نهار حتى انهزم وانحطم، وأصبح كعصف مأكول، وسلم البيت من عادية المعتدي، وأمِنَ البيت من طغيان الطاغية.

obeikandl.com

هذه القوة التى ظنّ هو أنه قد استنفذ منها ابنه فحماه من الموت، وضمن له حياة كحياة الرجال: فيها ما فى حياة الرجال من سعادة وشقاء، ومن راحة وتعب، ومن جدّ وسعى، ومن اضطراب بين اليمن والشام، ومن استقرار فى الظواهر والبطحاء. ألم يُصارع الموتَ عن ابنه صراعًا! ألم يشتر ابنه من القضاء شراءً! فما هذا الجهاد بالقداح بينه وبين القضاء المسلط! يفادى ابنه بالإبل فيشتط غليه القضاء ولا يرضى حتى يبلغ المائة. فيمّ كان انتصاره، وفيمَ كان ابتهاج بنى هاشم؟ وفيم كان ابتهاج قريش بانتصار الحياة على الموت، وإفلات الشباب من مُدية المضحَّى؟

وكان الشيخ يضحك فى نفسه ضحكًا حزينًا يوشك أن يكون بأسًا مهلكًا وثورةً جامحةً، لولا أنه كان ذا قلب تعلم كيف يطمئن للأحداث ويُضعن للخطوب، وَيصبر على النائبات. كان الشيخ يضحك فى نفسه ضحكًا حزينًا حين كان يفكر فى غرور قريش، وتقديرها أن الله قد ردّ طاغية الحبشة، وأرسل عليه وعلى جيشه ما أرسل من الطير الأبابيل، تكريمًا لها وإيثارًا؛ وحين كان يفكر فى غروره هو حين كان يقدر أن الله قد أنقذ ابنه من مُديته وفَداه بمائة من الإبل إيثارًا له بالعافية، واختصاصًا له بالكرامة. كلا! كلا! لم يُهزم الفيل وأصحاب الفيل إكرامًا لقريش، وإنما هى آية أجراها الله لأمر يعلمه هو، ولا يعلم الناس منه شيئًا. ولم ينقذ الله عبد الله من الموت ويفاده بمائه من الإبل إكرامًا له أو إكرامًا لأبيه، وإنما أنقذه من الموت وفاداه بالإبل لأمر يريده هو، ولا يعلم الناس منه شيئًا. وإلا ففيم نجا هذا الفتى من الموت ليموت بعد ذلك بقليل! أليس غريبًا أن ينجو من الموت فيتخذ له زوجًا لا يقيم معها إلا وقتًا قصيرًا، ثم يفارقها كما يفارق الناس أزواجهم ليعود غليها كما يعود الناسُ إلى أزواجهم، ولكن رفاقه يعودون وهو لا يعود، إنما يتخلف فى يثرب ليموت عند أخواله من بنى النجار؛ وقد عرفت زوجه بعد أن ارتحل عنها أنه قد حمَّلها أمانةً ما زالت تحملها فى جوانحها، حتى إذا جاء أمر الله أدت هذه ا لأمانة. ومن يدري! لعل عبد الله لم يوجد إلا ليودعَ هذه الأمانة عند زوجه! ومن يدري! لعل آمنة لم توجد إلا لتؤدى هذه الأمانة إلى الناس.

وكان الشيخ إذا فكَّر فى هذا كله، لم يملك نفسه أن يرى ابنه شديد النشاط، عظيم القوة، رائع الشباب، بارع الجمال، يستقبل السفر بأمل لا حد له؛ ثم يراه نحيلاً، هزيلاً، شاحبًا، متهالكًا، محزونًا، يمرَّض على فراشه عند بنى النجار؛ ثم يراه وقد دنا منه الموت مُكابرًا مُكاثرًا، فاستله من الحياة أو استل الحياة منه، كأنما يثأر لنفسه من تلك الهزيمة التى أصابته يوم الفداء. فكان الشيخ يستسلم لحزن عميق لا يُخرجه منه إلا اضطرابُ الناس من حوله، وإلحاح الناس عليه، وفيهم أبناؤه وبناته، فيما كان يشغلهم من الأمور.

وكانت آمنة ترى نساء قريش ونساء بنى هاشم من حولها، يبسمن للأيام ويبتهجن للحياة، فيعجبها ذلك منهن، ولا يداخلها حسدٌ لهن أو مَيلٌ إلى مشاركتهن. كانت تحس إحساسًا قويًا، ولكنه غامض، بأن الأيام قد وفه حظها من الغبطة وقسطها من النعيم فى ذلك الوقت القصير، الذى قضته مع زوجها منذ لقيته بعد الفداء إلى الرحيل. وكانت تريد أن تسعد بالتفكير فى هذا الجنين الذى تحسه يضطرب فى أحشائها، ولكنها لا تلبث أن تذكر زوجها، وأنه قد حُرم السعادة بهذه النعمة، فتكره أن تستأثر من دونه بالخير، وتتحدث إلى نفسه بأن الاستمتاع بالأبناء والبنات لذةٌ لا يستبدُ بها الفرد، وإنما هى مشتركة بين اثنين، فإذا ذهب أحدُهما ثَقُلت على الآخر وشق احتمالها عليه وكانت له مصدر ألم وحُزن. ولكنها مع ذلك لم تكن تجد هذا الألم الممض الذى كانت تقدُره وتنتظره، كأنما خُلقتْ نفسها مُذعنةً، وكأنما فُطر قلبها على الرضا، وكأنما استيقنت أن حياة الأحياء عبء يجب أن يحمل، رضى الناسُ أو سخطوا، وأنّ احتماله مع الرضا والاطمئنان خير من السخط الذى لا يجدى، والثورة التى لا تفيد.

على أن الأيام لم تكن تتقدم بآمنة نحو ذلك اليوم المشهود، حتى يغمرها شيء يشبه نسيان النفس والانصراف عن الشعور الواضح بالحياة والتفكير الجلى فيها. وكانت تُنفق نهارها ذاهلةً أو كالذاهلة، وتنفق ليلها فى نوم هادئ حُلو الأحلام. وما أكثر ما كان يزورها من حُلم؛ وما أكثر ما كان يُلم بها من طيف! وما أكثر ما كان يُلقى إليها من حديث! حتى إذا كانت ذات ليلة تتهيأ للخروج من ذهول النهار والدخول فى هدوء الليل، أحست بعض ما يحس النساء حتى يدنو منهن المخاض.

هنالك دعت إليها من حضرها من نساء بنى هاشم، فأسرعن إليها وقضين معها ليلة لا كالليالي، أنكرن فهيا كل شيء وأعجبن فيها بكل شيء. أنكرن حتى أنفسهن؛ وفقد رأين ما لم ير أحد، وسمعن ما لم يسمع أحد، وأحسَسْنَ ما لم يُحس أحد. ولم كن آمنة أقلهن إنكارًا وإكبارًا وإعجابًا؛ فقد كانت ترى، وهى يقظةٌ غير نائمة، أن نورًا يبعث منها فيملأ الأرض من حولها ويزيل الحجب عن عينها. وكانت تنظر فترى قصور بُصْرَى فى أطراف الشام. وكانت تنظر فترى أعناق الإبل تَرْدِى (١) فى أقصى الصحراء. وكانت لا تتحدَّث إلى من حولها بما ترى مخافةَ أن ينكرن ما تقول، وأن يَظُنَّ بها الظنون. وكانت هذه من صاحباتها تنظر فإذا نجوم السماء تدنو من الأرض وتمد إليها أشعةً قويةً نقيةً باهرة ساحرة، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل إلى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليها.

---

(١) تردي: تسرع بين العدو والمشي.

وكانت هى الأخرى من صاحباتها ترى ظلمةً مظلمةً قائمة، وتأخذها رعدةٌ قوية ناهكةٌ، ويُلِمُ بها شىء كأنه النوم، تسمع أثناءه صوتًا مهيبًا رهيبًا يسأل: إلى أين ذهبتَ به؟ فيجيبه صوتٌ مهيب رهيبٌ: إلى المشرق. ثم ينجلى عنها ما ألم بها فتفيق. ثم يعاودها ما كانت فيه، فإذا ظلمةٌ قائمة، وإذا رعدةٌ قومية ناهكةٌ، وإذا غاشٍ يغشاها كأنه النوم، وإذا هى تسمع الصوت المهيب الرهيب يسأل: أين ذهبتَ به؟ فيجيبه صوتٌ مهيب رهيب: إلى المغرب. ثم ينجلى عنها ما هى فيه فتفيق.

وكذلك لم تدنُ السماء من الأرض كما دنت فى هذه الليلة. وكذلك لم يرّ الناسُ من الأعاجيب كما رأى هؤلاء النساء فى هذه الليلة. ولم تكن آمنة على هذه كله تجد ألمًا قليلاً أو كثيرًا، إنما كُشف عنها كل حجاب، ورُفع عنها كل غشاء، وخُلَّى بينها وبين عالم من الجمال الذى يُرى ومن الجمال الذى يُسمع لا عهد للناس بمثله. ثم ترى ويرى صاحباتها كأن شهابًا انبعثت منها فملأ الأرض من حولها نورًا يبهر الأبصار، ثم ترى فإذا ابنها قد مسّ الأرض يتقيها بيديه رافعًا رأسه إلى السماء مُحدقًا ببصره إليها كأنما يلتمس عندها شيئًا. ثم تسرع صاحباتها إليه وإليها ليؤدين له ولها ما تحتاج إليه الأم حين تمنح الحياة، وما يحتاج إليه الابن حين يستقبل الحياة، فإذا هى لا تحتاج إلى شىء، وإذا هو لا يحتاج إلى شىء، وإذا هن يتناولن أجمل صبى، وأروع صبى، وأبرع صبى، وإذا قلوبهن قد امتلأت بأن الأرض قد استقبلت وليدًا لا كالولدان.

ثم يشرق الفجر وتبسيط الشمس رداءها النقى على بطحاء مكة وما يحيط بها من الجبال؛ ويرتفع الضحى، ويضرب الناس فى أمورهم وقد قضوا ليلاً جاهلاً غافلاً، لم يشعروا فيه بشىء، كأن لم يكن فيه شىء. ولو قد كُشف عنهم الغطاء، ولو قد أزيلت عن قبولهم الحجب لرأوا وسمعوا. ولكن الله قد جعل لكل شىء قدرًا؛ فهو يظهر آياته لمن يشاء، ويخفى آياته على من يشاء. وعبد المطلب جالس فى الجحر وحوله أبناؤه وجماعة من قريش، قد أخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث. وهو يسمع إليهم بأذنيه، ويُعرض عنهم بنفسه، يفكر فى فقيده الذى لا يستطيع أن ينساه. وإنه لفى ذلك وإذا البشير يُقبل عليه مسرعًا، حتى إذا انتهى إليه حيَّاه وقال: لقد وُلد لك غلام، فلُمَّ فانظر إليه؛ فلا يسمع هذه البشرى حتى يُحس أن الله قد أخلفه من فقيده ورَفق به فى مُصابه، وادخر له عزاءً عن محنته. فيسأل: أهو ابنُ عبد ا لله؟ فيجيبه البشير نعم. فينهض مسرعًا وينهض معه بنوه، ويمضون لا يلوون على شيء حتى يبلغوا بيتَ آمنة. فإذا دخل الشيخ ورأى الغلامَ أحس كأن الله قد أنزل على قلبه السكينة وجلا عن قلبه الحزن، ورده إلى غبطة وسرور بَعُدَ عهده بهما.

ثم يسمع حديث النساء فلا يُنكر منه شيئًا، كأنما كان ينتظره، وكأنما كان منه على ميعاد. ثم يرفع الصبى إليه فيقلبه ويقول: لأسمينه محمدًا. قالت آمنة: لقد أتانى فى اليوم لأمرنى أن أسميه أحمد. قال عبد المطلب: فهو محمد وهو أحمد، وما أرى إلا أنهما بعضُ أسمائه.

قلت لمحدثى: فقد زعموا أن عبد المطلب خرج بعد ذلك فنحر الإبل لأهل مكة، ونحر الإبل لأهل الشَّعاب، ونحر الإبل على رؤوس الجبال، ليُطعم الناس وليُطعم الوحش. قال: وهل كان عبد المطلب إلا نعمةً للناس ونقمةً على الإبل!

ولكن عبد المطلب لم يفرغ من شأنه ذاك، ولم يَعدْ إلى المسجد مع العصر، حتى رأى أنديةَ قريش مُجتمعةً فيه، تَلهج كلها بحديث غريب ونبأ طريفّ أذاعه فى مكة رجلٌ من أهل الظواهر، فشغل به الناس وتناقلوه. وكان هذا الرجل طَلبةَ أهل المسجد، ينتقل بحديثه من نَدى إلى ندى، فلا يكاد يُتم حديثه إلى قوم حتى يدعوه إليهم قومٌ آخرون ليسمعوا منه ويسألوه. وكان يستحبُ لمن يدعوه، ولا يزهد فى أن يُعيد قصته مرةً ومرة، وكأنه قد أحس لنفسه خطرًا، وكأنه قد رأى نفسه مطلوبًا بعد أن لم يكن من قبل إلا طالبًا، وكأنه قد كبر فى نفسه، فكان يقول ويُطيلُ فى القول، وكان يفصَّل ويُغرق فى التفصيل. وكانت أفناء قريش تسمع له، فهمنها مَن يُعجَبُ، ومنها من يرتاع، ومنها مَن يلقى الحديث بالإغراق فى الضحك، ومنها من يلقى الحديث بهز الرؤوس.

وكان هذا الرجل يقص قصصه فيقول: ما كنت أعلم أن لليل أسرارًا ليست للنهار. وكانت أعلم أن للصحراء أنباء ليست للمدن والأرض العامرة. وما كنتُ أحسبُ أن فى هذا الهواء الذى نتنسمه وفى هذا الفضاء الذى يحيط بنا أرواحًا تناجى، وأحياء تتجاذب الحديث، حتى رأيت ما رأيت، وسمعتُ ما سمعت، فتبينت أن حياتنا غُرور، وأن علمنا جهل، وأن أحاديثنا لهوٌ وُهراء. والناس يتعجلونه فيقولون له: هات ما عندك من النبأ، حتى إذا فرغت من قصته فُقل ما شئت، وهو يقول: لقد جَنَّنى الليل، وإنى لفى طريق من الطائف إلى مكة فلا أحفل بذلك ولا آبه له، ولا أفكر فى أن آوى إلى حى من هذه الأحياء التى تنتشر بيوتها فى الطريق لأنتظر مشرقَ الشمس، ولكننى أمضى أمامى لا ألوى على شىء ولا أرهبُ شيئًا، وماذا أرهب والطريق آمنة واضحة يسلكها الناس إذا أصحبوا، ويسلكونها إذا أمسوا، يسيرون فيها مع ضوء النهار، ويسيرون فيها مع ظلمة الليل؛ قد عرفوها فهم لا يحتاجون إلى مرشد ولا دليل. فأمضى أمامى مُجدًا فى السرى، أريد أن أفجأ أهلى مع الصبح. وإنى لفى بعض الطريق وقد سكن من حولى كل شىء حتى لا أسمع إلا أخفاف مطيتى تمس الأرض مسًا رفيقًا، وإلا هذه الأنَّات التى تُرسلها المطايا إذا جهدها السير وحنَّت إلى الراحة، وإلا ما كنت أناجى نفسى به من حديث أهلى إذا طلعت عليهم مع ضوء الشمس. وكان ضوء القمر قد انبسط على الفلاة هادئًا نقيًا فملأ نفسى أمنًا ودعة وهدوءًا.

وإنى لفى ذلك، وإذا غمغمة تصل إلى من بعيد، فلا أحفل بها ولا ألقى إليها بالاً، وإنما أمضى فيما أنا فيه من الاستمتاع بذلة هذا السُّرى، ومس أخفاف مطيتى للأرض، وحنينها إلى ما بَعُدَ عهدُها به من الراحة، وأحاديث نفسى عمن فارقت، فى الطائف وعمن سألقى فى مكة. ولكن الغمغمة تدنو منى أو أنا أدنو منها، وإذا هى تشتد شيئًا فشيئًا، وإذا أصواتها تمتاز وتستبين، وإذا أنا أسمع أحاديث قوم يتهامسون، وإذا أنا أنظر فلا أرى أحدًا. والقمر مع ذلك مشرق مضىء، والفلاة مع ذلك مبسوطة لا عوج فيها ولا ارتفاع، والحديث مع ذلك من حولى واضح يملأ الهواء، وقلبى مع ذلك يضطرب ويمشى فى صدرى رعبًا. وأنا أذهب بمطيتى إلى أمام وأرجع بها إلى وراء، وأذهب بها عن يمين وأذهب بها عن شمال، وارفع بصرى إلى السماء وأخفض بصرى إلى الأرض، فلا أرى شيئًا ولا أتبين شيئًا إلا جمال هذا الضوء الرائع يغشَّى الأرض برداء نقى رقيق. وهذه النجوم التى لا تُحصى وقد تألَّقت فى السماء كأنها المصابيح، وانطلقت فى طريقها مسرعةً كأنها تستبق، وهذه الأحاديث الواضحة تَتحدَّث بها جماعاتٌ لا أراها، ولكنها لا تستقر، إنما يمضى بعضها إثر بعض. وإنى لأسمع قائلاً يقول: "انظروا إلى السماء، فما أرى أنها كعهدنا بها من قبل. إن نجومها لتتألق فى قوة لم نرها قط. إنها لتستبق فى سرعة لم نرها قط. إنها لتدنو من الأرض حتى إن نارها لتوشكُ أن تحرقنا. إن التصعيد فى السماء لعسير. وفيمَ نَصعدُ إلى السماء وإن السماء لتهبطُ إلينا! إن البقاء على الأرض لعسير. وأنَّى لنا الثباتُ بهذا الضوء الذى لا يَخفى عليه شىء، حتى أشباحنا الخفية التى لا تراها العيون! النجاء النجاء! إن للغيب لعجبًا، وإن فى الأرض لحَدَثًا، وإن الزمان ليستدير، وأنا لا ندرى أشرٌ أريد بالناس أم خيرًا!".

وإنى لأسمع ما أسمع وأرى ما أرى، فيبهَرُنى ما أسمعُ ويسحرنى ما أرى، وأشغل به حتى عن أن أسائل نفسى، أين أكون وما تكون هذه الأصوات. ولكنى أحس أصواتًا أخرى كأنها تُهيب بأهل تلك الأصوات التى كنتُ أسمعها قائلة: النجاءَ النجاءَ! ولكن إلى أين؟! إنكم لتفرون من مكة كأن شيئًا أزعجكم عنها وقد كنتم فيها آمنين، وقد كنا نَفِرُ إليكم لأن شيئًا أزعجنا عن دورنا، وأخرجنا من مأمننا، واضطرنا إلى أن نهيم فى الأرض، لا ندرى ما هو، ولا نردى من أين جاء، إنا لنتسامع من أطراف الأرض بأن حدَثًا قد حدث، وبأن كائنًا قد كان. إنا لنتسامع بأن إيوان كسرى قد اضطرب ومادت به الأرض، فسقطت شُرفاته وتهدم بنيانه، وإذا أصوات أخرى تصبح منتشرة فى الفضاء: وإنا لنتسامع بأن نار الفرس قد خَبتْ فجأة لأول مرة منذ ألف سنة. وإذا أصوات أخرى تصيح: أنا لنتسامع بأن بحيرة ساوة قد جفَّت، وما عهدناها إلا غزيرة جمَّة الماء. وإذا هذه الأصوات كلها تملأ الأرض، رقيقة خفيفة، خائفة قَلِقَة: النجاءَ! النجاء! إن السماء لخيرًا،

وإن الأرض لتستقبل يومًا لم تستقبله من قبل، وإن لهذا اليوم فى حياة الأرض لشأنًا لا ندرى أخيرًا هو أم شرً! النجاء النجاءَ!

وقد فقدت صوابى وأضللت عقلى، فلا أحس شيئًا، ولا أرى شيئًا، ولا أسمع شيئًا، كأنما انتزعتُ من الحياة انتزاعًا. ثم يمسى برد السحر فأفيق وكأنما ثُبْتُ إلى نفسى من سفر بعيد. وأنظر حولى فأرى أصابع الفجر تمتد إلى الأشياء كأنما تريد أن تلمسها، وأرى الليل ينحسر عن الأشياء كأنما يودَّعها محزونًا، وأرى النجوم تنهزم فى السماء كأنما تخاف جيشًا منتصرًا، وأرى ناقتى مذعنة لحكم السُّرَى تمضى أمامها كأن شيئًا لم يكن من حولها. وأبلغ أهلى مع الصبح، فيستقبلوننى دَهِشين كما كنت أقدَّر، ولكنى لا أستمتع بهذا الدهش كما كنت أريد.

ويتفرَّق الناس عن هذا الرجل وقد سمعوا منه، وإن بعضهم ليسأل بعضًا: ماذا يقول وماذا رأى؟ وإن بعضهم ليقو لبعض: لقد أخذه النوم فعبثت به الأحلام، وإن بعضهم ليقول لبعض: لقد مرّ بجماعة من جنَّ الصحراء كانوا يسمُرون.

ويسمع عبد المطلب فتثور فى نفسه خواطر لا ينكرها ولا يعرفها، ولكنه لا يطيل الوقوف عندها؛ لأنه مشغول عنها بمقدم حفيده اليتيم.